الفصلُ الثالثُ
الناحيةُ الاقتصاديةُ لمدينةِ مرو في العصرِ السلجوقي

نتناول في هذا الفصل عدة نقاط هامة في تاريخ هذه المدينة من الناحية الاقتصادية، فنبدأ أولًا في الحديث عن الإدارة المالية حيث لعب السلاطين السلاجقة دورًا هامًّا في تنظيم النواحي المالية لهذه المدينة حتى يتم تحقيق الأمن والاستقرار والتساوي بين موارد الدولة ونفقاتها.

فالموادر المالية في المدينة تقوم أساسًا على مصادر عدة وهي: الخراج والجزية والمكوس.

١ - الخراج

فتعريف الخراج: هو مقدار معين من المال أو المحصول يُفرض على الأراضي الزراعية[١]، وهذا المقدار غير ثابت، بل كان يقل ويزداد حسب نوع التربة وطريقة ري الأرض، ونوع الزرع ومساحة الأرض وكمية إنتاجها.

فيقول الماوردي صاحب كتاب الأحكام السلطانية: إن الأرض تختلف من ثلاثة أوجه، يؤثر كل منها في زيادة الخراج ونقصانه، أحدهما: يختص بالأرض من جودة يزكو بها زرعها أو رداءة يقل بها ريعها، والثاني: ما يختص بالزرع مع اختلاف أنواعه من الحبوب والثمار، فمنها ما يكثر ثمنه، ومنها ما يقل ثمنه؛ فيكون الخراج بحسبه، والثالث: ما يختص بالسقي والشرب؛ لأن ما التزم المؤنة في سقيه النواضح والدوالي لا يحتمل من الخراج ما يحتمله سقي السيوح والأمطار[٢].

---

(١) ابن رجب: الاستخراج لأحكام السلطانية ٥- بيروت بدون تاريخ، يحيي بن آدم القرشي: الخراج ٢٣- القاهرة ١٩٩٤م.

(٢) الماوردي: الأحكام السلطانية ١٢٩- القاهرة ١٣٨٠هـ.

obeikandl.com

عمل السلاجقة على ضرورة استعمال الرفق بالرعايا، حيث أصدر السلطان طغرلبك فرمانًا بإعفاء أهالي مدينة مرو وسائر المدن في خراسان من دفع ضريبة الخراج لسنة كاملة[١]، وسار بقية السلاطين على سياسة السلطان طغرلبك في التسامح والرفق بالرعايا عند جمع وتحصيل الخراج المفروض على الفلاحين، فكان السلطان ألب أرسلان يتقاضى قيمة الخراج على مرتين في العام لكي لا يثور الفلاحون[٢].

أيضًا أوصى الوزير نظام الملك رجاله بضرورة حسن معاملة الفلاحين، وعدم فرض أي أموال زائدة عما هو محدد، وأن تكون مطالبتهم للفلاحين تسديد قيمة هذه الأموال برفق وأدب، كذلك التوصية بعدم أخذ الخراج منهم قبل جني المحصول حتى لا يتسبب ذلك في إرهاقهم والتضييق عليهم؛ فيضطروا إلى بيع محصولاتهم قبل أن ينمو، فيقل ثمنها مما يقع إلى خسارة فادحة لهم، كذلك أمر نظام الملك عمال الخراج بضرورة أن يوفروا لهم كل ما يحتاجون إليه من بذور ومواشي وغيرها حتى لا يقوم بالهجرة وترك الأراضي[٣].

وكان هناك عدة طرق لتقدير قيمة الخراج، فكانت إما بقياس مساحة الأرض وأخذ متوسط إنتاجها[٤]، أو عن طريق المقاسمة بأخذ حصة من المحصول[٥]، أو عن طريق المقاطعة بدفع الخراج في صورة مبلغ إجمالي، وقد سادت هذه الطريقة في العصر السلجوقي.

---

(١) الحسيني: زبدة التواريخ ٤٥.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٥٨٨، الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ٧٠.

(٣) نظام الملك: سياست نامه ٨٥ ترجمة محمد الغراوي-القاهرة-بدون تاريخ.

(٤) الأصطخري: المسالك والممالك ١٥٧.

(٥) ابن رجب: الاستخراج لأحكام الخراج ١١٩.

ديوان الخراج

وهو ما يطلق عليه ديوان المالية، وكان هذا الديوان موجودًا في مرو؛ لأنه يحتفظ بسجلات يدون فيها تقديرات الخراج على المناطق المختلفة وأنواع الأراضي بكل منطقة[١]، وكانت وظيفته جمع الخراج المفروض على الأراضي الزراعية والضرائب المفروضة على الصناعات ومكوس التجارة[٢].

وكان ديوان الخراج ينقسم إلى قسمين؛ أحدهما يقوم بالإشراف على النفقات والمصروفات، والآخر يشرف على المورد وجمع الضرائب[٣]، وكان على رأس هذا الديوان (المستوفي) ويعين من قبل الدولة، وكان يقدر باحترام كبير، فنذكر مثالًا على السبيل (زين الدين) عندما تقلد وظيفة مستوفي ديوان الخراج في مرو أصدر الأوامر بإبداء الاحترام له، وأن تقدم له أي مساعدة من رئيس المدينة، وأن تجاب كل طلباته[٤].

كذلك الحال عندما عين (معين الدين) عاملًا لمرو كوكيل للديوان، وصدرت الأوامر لكل من رئيس المدينة ووالياها وقاضيها وكبار رجال الدولة وأعيان المدينة بأن يكرموه ويعتبروه نائب السلطان، ويرجعوا إليه في كل الشئون التي تخص الديوان، وأن يتعاونوا معه في تحصيل الضرائب[٥].

أما عن قيمة الخراج الذي كان يُتَحصل من مدينة مرو، فلم تذكر المصادر

---

(١) د/ محمد جمال الدين سرور: الحضارة الإسلامية في الشرق ١٢٣ دار الثقافة-القاهرة-٢٠٠٤م.

(٢) الثعالبي: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ٤/ ١٥١- بيروت ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م، د/ إبراهيم أحمد العدوي: النظم الإسلامية ٢٣٤.

(٣) د/ محمد جمال الدين سرور: الحضارة الإسلامية في الشرق ١٢٣.

(٤) منتخب الدين أتابك الجويني: عتبة الكتبة ٤٨ - طهران ١٣٢٩هـ.

(٥) منتخب الدين: المصدر السابق ذكره ٦٧.

المعاصرة للسلاجقة أي مبالغ محددة للخراج، فقد ذكر الجهشياري قيمة خراج خراسان ككل ٢٨٠٠٠٠٠٠ درهم، كما ذكر ابن خلدون في المقدمة قيمة خراسان ٣٨٠٠٠٠٠٠ درهم، والمصدر الوحيد الذي ذكر قيمة خراج مرو مستقلا عن خراج خراسان هو ابن خردذابه ويقدر بـ١٤٧٠٠٠ مليون درهم.

وخلاصة القول: لقد بلغ ديوان الخراج في مرو غاية الدقة والنظام، وهو بذلك يتمشى مع ما هو مُتبع في أحدث الإدارات المالية المستخدمة الآن.

٢- الجزية

هي عبارة عن مبلغ معين من المال يُفرض على أهل الذمة مقابل المحافظة على أموالهم وأرواحهم[١]، كما يدفع المسلم الزكاة، فهم رعايا لدولة واحدة، وقد ورد في سورة التوبة الآية ٢٩: ﴿ **قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ** ﴾.

وتسقط الجزية باعتناق الإسلام، ومما لا شك فيه أنها من أهم الموارد في بادية العصر الراشدي، لكنها رويدًا رويدًا تناقصت بانتشار الإسلام، وتجنى الجزية مرة واحدة في السنة حسب الشهور القمرية، وقد جرت العادة أن يعطى لمن يدفع الجزية براءة تثبت أداءه لها[٢]، وكانت الجزية تؤخذ من الرجال، ويعفى منها النساء والصبيان والكهول، كذلك لا تؤخذ من المسكين الذي يُتصدق عليه، ولا من مقعد ولا أعمى ولا من أهل الصوامع إن لم

---

(١) أبو يوسف: الخراج ١٢٢، يحيي بن آدم القرشي: الخراج ٢٣، فلهوزن: تاريخ الدولة العربية ٤٥٥ ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة-القاهرة ١٩٥٨م، إبراهيم فؤاد أحمد: الموارد المالية في الإسلام ٢٠٨ القاهرة ١٩٧٠م.

(٢) Fateh.Texation in Persia , Bulletin of the school of oriental studies p.739

يكونوا ذوي يسار[١]، وقد بلغ مقدار الجزية في مرو في العصر السلجوقي دينارًا[٢]؛ وذلك لأن معظم أهل مرو كانوا على المذهب الشافعي، فمن الواقع أن يخضع أهل الذمة في المدينة لحكم الإمام الشافعي الذي قدَّر الجزية بدينار[٣].

٣- المكوس

هي عبارة عن الضرائب المفروضة على التجارة، وكذلك قد فرضت على تجارة أهل الذمة وعلى البضائع الواردة والمتصدرة داخل وخارج مرو، كذلك فرضت أيضًا على التجارة الداخلية في الأسواق على عمليات البيع والشراء[٤].

وتحسب قيمة الضرائب بنحو ١/ ٢٠ على بضائع التجار المقيمين بالبلاد الإسلامية إذا تجاوزت قيمة بضائعهم عشرين دينارًا أو مائتي درهم، وعشر قيمة بضائع التجار القادمين من خارج الدولة الإسلامية[٥]، وكان المكوس تجبى مرة واحدة في السنة، ويمنح التاجر إيصالًا بتأدية الضريبة، يسري لمدة[٦].

أيضًا هناك أماكن محدودة تجبى عندها هذه الضرائب، ويطلق عليها

---

(١) يحيى بن آدم القرشي: الخراج ٢٥.

(٢) د/ عصام عبد الرءوف الفقي: الحواضر الإسلامية ١٤٤، دار الفكر العربي، ١٩٧٦م.

(٣) محمد ضياء الريس: الخراج والنظم المالية ١٣٦.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم ١٨/ ٥٠، د/ محمد جمال الدين سرور: الحضارة الإسلامية في الشرق ١١٩.

(٥) د/ محمد ضياء الدين الريس: الخراج والنظم المالية ١٣٨، د/ عصام عبد الرءوف: تاريخ الفكر الإسلامي ١٣٣ دار الفكر العربي-القاهرة ٢٠٠١م، إبراهيم فؤاد: الموارد المالية في الإسلام ٢١٠.

(٦) إبراهيم فؤاد: المرجع السابق ذكره ٢١٠.

(الماصد) أو (المراصد)[١]، وكان جباة هذه الضريبة يقيمون أماكنهم عند صرف التجارة البرية والنهرية، وهي ما نطلق عليها الآن نقاط تفتيش[٢].

أيضًا فرضت ضرائب على الأسواق والحوانيت والدور والأوزان والمكاييل وسك العملة، وكانت تسمى هذه الأنواع من الضرائب (مسقغلات)[٣]، كما كانت الأموال والعقارات التي مات أصحابها دون وريث شرعي تتحول إلى بيت المال مباشرة[٤] في ديوان المواريث، كذلك كانت المصادرات تمثل مصدرًا هامًّا للدخل في مدينة مرو خلال العصر السلجوقي، وهي في الحقيقة تمثل نوعًا من العقاب، فعلى سبيل المثال صادر السلطان سنجر كل ما يملكه وزيره مجير الملك لما بلغه عنه من مساوئ، نشرها فخر الملك بن نظام الملك حتى يتمكن من تولي الوزارة بدله[٥].

النفقات

أما عن وجوه صرف هذه الأموال التي تأتي من الموارد السابق ذكرها، فتنفق في عدة مجالات؛ ومن أهمها الإنفاق العسكري في شراء الأسلحة ودفع رواتب الجنود والقادة، وكان يراعى عند تقديرها أن تكون مناسبة لرتبهم ونوع السلاح الذي ينتمون إليه، وأحيانًا كانت الدولة تعطي بعضهم إقطاعات بدلًا من الأموال[٦]، بالإضافة إلى بناء الحصون والأسواق فقد بنى

(١) الخوارزمي: مفاتيح العلوم ٥٦، دار الكتاب العربي-بيروت.

(٢) أبو يوسف: الخراج ١٣٧.

(٣) د/ محمد جمال الدين سرور: الحضارة الإسلامية في الشرق ١١٩، د/ عصام عبد الرءوف الفقي: تاريخ الفكر الإسلامي ١٣٤.

(٤) الراوندي: راحة الصدور وآية السرور ٧٦، الماوردي: الأحكام السلطانية ٢٤٣.

(٥) خواندمير: دستور الوزراء ٢٧٤.

(٦) د/ محمد جمال الدين سرور: المرجع السابق ذكره ١٢٠.

obeikandl.com

السلطان ملكشاه سورًا عظيمًا حول مرو سعته ١٢٣٠٠ مكعب[١].

أيضًا الإنفاق على التعليم وإنشاء المدارس الكبيرة والعظيمة والنظاميات، والتي نذكر منها نظامية[٢] مرو والإنفاق على المدرسين والطلبة، وكذلك أيضًا الإنفاق على حفر الترع[٣] وبناء القناطر[٤] وإقامة الجسور والطرق والمنشآت التجارية، كذلك دفع رواتب القضاة والعمال والموظفين[٥]، وكان يُراعى أن تكون رواتبهم كافية ومجزية، بالإضافة إلى نفقات السلاطين في المدينة على الاحتفالات والأعياد والمواسم والمواكب وغيرها من المناسبات[٦].

كانت هذه أهم ملامح وجوه صرف الأموال والنفقات في مدينة مرو خلال العصر السلجوقي، وفي الحقيقة كانت السياسة المالية لسلاطين السلاجقة العظام قد نجحت في تحقيق التوازن بين مواردها ومصروفاتها إلَّا أنها اضطربت أواخر العصر السلجوقي؛ بسبب الحروب والثورات في مرو وغيرها من مدن الدولة السلجوقية؛ وبالتالي لم يحدث التوازن.

ثانيًا: النشاط الزراعي في مدينة مرو

وجه السلاطين السلاجقة عنايتهم إلى تنمية الثروة الزراعية في مدينة مرو حتى يتيسر لهم توطيد دعائم دولتهم، فقد فطن السلاجقة إلى أن الزراعة تعتبر من أهم موارد الدخل وبناء الاقتصاد.

---

(١) لسترانج: بلدان الخلافة الشرقية ٤٤٥.

(٢) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ٥٩، سير أعلام النبلاء للذهبي ١١/ ٩٤ طبعة بيروت ١٩٩٦م.

(٣) ناصر خسرو: سفرنامه ١٧٢ ترجمة يحيى الخشاب-القاهرة ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م.

(٤) ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢/ ١٩٩.

(٥) أبو يوسف: الخراج ١٨٧، ابن رجب: الاستخراج لأحكام الخراج ١٢١.

(٦) د/ طه ندا: الأعياد الفارسية في العالم الإسلامي ١٣- ١٤ مجلة كلية الآداب-جامعة الإسكندرية المجلد ١٧، ١٩٦٣م.

openkanar.com

نظام الري ومصادره

تعتبر المياه عاملًا رئيسيًّا في الزراعة، وكان يوجد في مدينة مرو ديوان لتيسير سبل الري يسمى (ديوان الماء)[١]، ويشرف على هذا الديوان أحد كبار موظفي الدولة، تعلو مكانته، وصاحب المعونة في المدينة، وكان يساعده أكثر من عشرة آلاف عامل[٢]، وقد قام هذا الديوان في مرو لوجود نهر عظيم بها هو نهر المرغاب[٣] ونهر المروين الذي ينبع من تحت جبال الغور في شمال شرق هراة، ويجري هذا النهر على مرو الروذ ثم مرو الشاهجان[٤].

وعلى هذا النهر يوجد مجموعة من الحراس يرعونه ويحفظونه ويراقبون سدوده لئلا تنبثق، وذلك أنه قد أقيم سد عند فروج النهر من مرو الروذ، سد من الجانبين بالحطب وانحبس الماء، ثم مد النهر بعد ذلك إلى مرو الشاهجان[٥]، وكان هناك مقياس يعرف به فيضان النهر من انحساره، هو عبارة عن لوح مقام على النهر مشقوقًا شقًّا طويلًا تتحرك عليه شعيرة، وعندما يفيض الماء في اللوح ستين شعيرة تكون سنة خصبة ويستبشر الناس، وإذا كانت ست شعيرات كانت سنة قحط[٦].

والمقياس على بعد ثلاثة أميال من المدينة، وهو عبارة عن شبه حوض مستدير، وإذا قدر المتولي الفيضان أو القحط أرسل البريد إلى ديوان النهر،

---

(١) الخوارزمي: مفاتيح العلوم ٤٥.

(٢) المقدسي أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ٣٣٠.

(٣) الأصطخري: المسالك والممالك ٢٦١، البلاذري: فتوح البلدان ٣٩٧.

(٤) لسترانج: بلدان الخلافة الشرقية ٤٣٩.

(٥) لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ٤٣٩.

(٦) المقدسي: أحسن التقاسيم ٣٣٠- ٣٣١.

وينفذون الرسل إلى جميع المتوليين شعب النهر، فيقسمون النهر على ذلك[١] المقدار، وكان مقسم[٢] هذا النهر في قرية زرق[٣]، وقد ذكر المقدسي أن الذي يقوم بقسمته (ما ترك من العدل شيئًا إلَّا وقد استعمله)[٤].

وتتشعب من نهر مرو أنهار صغيرة، هي نهر هرمزفرة نحو سرخس يسقي طرف البلد والضياع، ونهر الماجان ويتخلل الأسواق ثم يخرج إلى رأس البلد وعليه جسور تعبر إلى الشوارع، ونهر الزرق يجري على باب المدينة ويتفرق في حياض قليلة عميقة ونهر أسعدي ومنه يشرب أهل محلة باب سنجان وميرهان[٥]، وهذه الأنهار الصغيرة عليها ألواح خشب فيها ثقب مقدرة، لا يستطيع أحد أن يزيد فيها أو ينقص ويأتي شربهم بمقدار، إن زاد الفيضان حلت عليهم الزيادة وإن نقص نقصوا ولا يثار لقوم على قوم[٦]، كما يتضمن هذا الديوان دفاتر وسجلات يدون فيها خراج الأرض على حسب نوع ريها[٧].

وكثرت مصادر الري في مدينة مرو، فكما أسلفنا يعتبر نهر المرغاب وفروعه

---

(١) المقدسي: المصدر السابق ذكره ٣٣٠- ٣٣١، سامية توفيق عبد الله: الثروة الزراعية في خراسان ٢٥٨- ٢٥٩ مجلة كلية الدراسات الإنسانية-جامعة الأزهر العدد ٣، القاهرة ١٩٨٥م.

(٢) الخوارزمي: مفاتيح العلوم ٤٥.

(٣) ابن حوقل: المسالك والممالك ٣١٥.

(٤) المقدسي: المصدر السابق ذكره ٣٣٠.

(٥) لسترانج: بلدان لخلافة الشرقية ٤٤٠، قحطان عبد الستار الحديثي: أرباع خراسان ٣٣٣- ٣٣٤.

(٦) ابن حوقل: المسالك والممالك ٣١٥.

(٧) الخوارزمي: مفاتيح العلوم ٤٥.

openkanal.com

المصدر الرئيسي للمياه فيها، وتأتي الأمطار في المرتبة الثانية بعد الأنهار من حيث الأهمية وبصفة خاصة في موسم سقوطها في فصلي الشتاء والربيع، كما تسقط الثلوج في فصل الشتاء، وأحيانًا تسقط بشكل مفاجئ(١).

وأيضًا تعتبر الآبار والعيون من مصادر الري الهامة، وكانت السلطة المحلية والأهالي في مرو يقومون بحفر الآبار في المناطق المتطرفة التي لا تصل إليها مياه الأنهار(٢)، أما العيون فقد انتشرت في مرو، واعتمدت عليها بعض القرى اعتمادًا كليًّا لوقوعها بعيدًا عن الأنهار، وأصبحت مصدرًا هامًّا لشرب الأهالي وري مزارعهم وبساتينهم(٣)، وكانت العيون في مرو عذبة حيث ذكر لنا اليعقوبي أن: (مشرب أهل مرو من عيون تجري)(٤).

خلاصة القول: إن الأنهار هي روح الحياة في مرو، فهي تمد الرساتيق والبساتين بالماء اللازم لقيام الزراعة بها كما تمد الدور بما تحتاجه من المياه، أيضًا أهمية الدور الذي به ديوان الماء في المدينة وأثره الكبير على تنظيم عملية الري، وتقدير قيمة الخراج طبقًا لأسلوب الري، واحتوائه على سجلات تقدير الخراج مما جعله يشبه في الوقت الحالي وزارة الري، وأيضًا دوره الكبير في معرفة أوقات الفيضان والقحط.

وسائل الري

كثرت وسائل الري نتيجة لتنوع مصادر المياه وتنوع التربة؛ فهناك الأراضي التي يتم فيها الري بدون آلة، وهي ما تعرف بالأراضي المنخفضة، وهناك

---

(١) ابن رسته: الأعلاق النفيسة ١٧٣، ليدن ١٨٩١م، اليعقوبي: البلدان ٢٩٧.

(٢) الأصطخري: المسالك والممالك ٢٧٣.

(٣) الأصطخري: المصدر السابق ذكره ٢٣١- ٢٣٢.

(٤) اليعقوبي: المصدر السابق ذكره ٢٧٩.

obeikandl.com

الأراضي المرتفعة التي اعتمدت على الوسائل الرافعة للمياه كالدالية؛ وهي عبارة عن (آلة ترفع الماء وتديرها البقر)[١]، والناعورة وهي (تركب على الأنهار وتديرها البقر)[٢]، والزرنوق (آلة بسيطة تركب على بئر) والمنجنون (الدولاب) هو الاسم الفارسي لتلك الآلة المسماة، وكان يرفع الماء من عمق صغير، ويستخدم في إدارته الإبل والبقر[٣].

أما عن طريقة زراعة الأرض فكانت نفس الطريقة المتبعة في سائر مدن خراسان منذ آلاف السنين، حيث استخدموا طريقة المناوبة[٤] في زراعة الأرض، واستعملوا المحراث البسيط الذي تجره الثيران في حرث الأرض ثم تنثر البذور، ويجمع المحصول بعد نضجه، كما استعملوا المسحاة والجرافة في تسوية الأرض[٥].

وكان المزارعون على معرفة جيدة بأوقات السقي واستغلالها[٦]، كما كان لهم خبرات بأوقات الفلاحة والزراعة واللقاح والغرس والحصاد؛ لأن ذلك يتوقف عليه أخذ ضريبة الخراج في النيروز، وكانوا يسمونه (نوروز) في الفلاحين[٧]، وقد حرص الفلاحون في مرو على خصوبة التربة وزيادة

---

(١) الخوارزمي: مفاتيح العلوم ٤٦.

(٢) الخوارزمي: مفاتيح العلوم ٤٦.

(٣) ابن بطوطة: رحلته ٣٧٧ القاهرة ١٤١٢هـ.

(٤) سامية توفيق: الثروة الزراعية ٢٦٠.

(٥) الدمشقي: الإشارة إلى محاسن التجارة ٣٨.

(٦) ابن حوقل: صورة الأرض ٣٦٥، الأصطخري: المسالك والممالك ٢٦١- ٢٦٢، المقدسي: أحسن التقاسيم ٣٣٠- ٣٣١.

(٧) البيروني: الآثار الباقية عن القرون الخالية ٣١- ٣٢ القاهرة ١٩٢٣م، قحطان الحديثي: دراسات من التنظيمات الاقتصادية مجلد ١٩ ص ٨١، مجلد الخليج العربي، العدد الأول.

إنتاجيتها، وذلك بتسميدها بالسماد العضوي الذي تخلفه الحيوانات من روثها[١]، وقاموا بتنظيف الأرض من الآفات والحشرات[٢].

ومما ساعد على ازدهار الزراعة من مرو عناية سلاطين السلاجقة وحرصهم على ضرورة توفير كافة الحاجيات والمستلزمات التي يحتاج إليها المزارعون من بذور جيدة وحيوانات تساعدهم في الزراعة، وقد أكد ذلك الوزير نظام الملك عندما أمر عماله بضرورة إمداد الفلاحين بما يحتاجون إليه من بذور ومواشي دون مقابل[٣].

أشهر المحاصيل الزراعية

تفوقت مدينة مرو بالعديد من المحاصيل الزراعية التي ذاعت شهرتها في الآفاق والتي نذكر منها:

١ - الحبوب

كان مدينة مرو تنتج القمح بكميات كبيرة حيث كانت بذور قمحها تعطي في السنة الأولى مائة ضعف، وفي السنة الثانية ثلاثين، وفي السنة الثالثة عشرة أضعاف[٤]، وتميز قمحها بأنه أجود أنواع القمح، وقد ذاع صيته في سائر البلاد وعرف باسم حنطة مرو[٥]، كما اشتهرت مرو بزراعة الأرز والذرة والشعير فهي من أطيب بلاد خراسان أطعمة[٦].

---

(١) آدم متز: الحضارة الإسلامية ٢/ ٢٩٠.

(٢) الأصطخري: المسالك والممالك ٢٨٧.

(٣) نظام الملك: سياست نامه ٥٨.

(٤) لسترانج: بلدان الخلافة الشرقية ٤٤٥.

(٥) ابن الجوزي: المنتظم ١٧/ ٧٢.

(٦) البلاذري: فتوح البلدان ٥٠٢.

٢- الخضراوات

كثرت الخضروات التي زرعت في مرو، ولما كانت الخضراوات من المزروعات سريعة التلف وبالتالي لا تكون غلة تجارية ذات عائد نقدي، فكانت تزرع لتغطية الاحتياجات الضرورية للسكان، وقد انتشرت في المدينة زراعة القرع والقثاء والفاصوليا والباذنجان والجزر(١).

٣- القطن

ومن أهم المحصولات الزراعية التي اشتهرت بها مرو القطن، وكان له شهرة عجيبة في الآفاق، فقد قامت عليه صناعة المنسوجات القطنية، وتميزت مرو بزراعة القطن المعروف جودته ولينه(٢)، وكان يزرع في دندانقان نوع من القطن يضرب به المثل لجودته، ويحمل منها إلى الكثير من البلاد(٣).

٤- قصب السكر والسمسم

أيضًا اشتهرت مرو بزراعة قصب السكر التي تقوم عليه صناعة السكر(٤)، وكذلك زراعة السمسم، ويدخل السمسم في صناعات كثيرة كصناعة الحلوى، ويستخرج منه زيت السمسم(٥).

٥- الفواكه

ذخرت مرو بالكثير من أصناف الفواكه على اختلاف أنواعها وألوانها،

---

(١) سامية توفيق: الثروة الزراعية ٢٦٧.

(٢) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ٤٧٦.

(٣) أبو الفدا: تقويم البلدان ٤٤٦، القلقشندي: صبح الأعشى ٤/ ٣٩٥.

(٤) السيوطي: لب الألباب ٢/ ٢٧١.

Encyclopedia Americana vol.20p349

(٥) ابن حوقل: صورة الأرض ٤٧٦، أبو الفدا: تقويم البلدان ٤٦.

obeikandl.com

ومن الفواكه التي ذاع صيتها في المدينة البطيخ، فتعد مرو بلد البطيخ المعروف بـ (بالبازنك) الذي كان يحمل إلى الآفاق، وخاصة العراق في قوالب من الرصاص معبأ بالثلج[١]، كذلك اشتهرت مرو بزراعة العنب، وكان يصنع منه الزبيب، وعن زبيب مرو يقول القلقشندي: بها الزبيب الذي لا نظير له[٢]، واشتهرت مرو أيضًا بزراعة الكمثرى والشمام حيث يجفف ويحمل إلى سائر الآفاق[٣].

الملكية الزراعية

كان الأساس الذي تقوم عليه الملكية الزراعية في مدينة مرو خلال العصر السلجوقي هو نظام الإقطاع، فقد لجأ سلاطين السلاجقة منذ البداية إلى الإقطاع كأسلوب إداري في تسيير إدارة البلاد المترامية الأطراف الواقعة تحت حكمهم، وكان طغرلبك أول سلاطينهم قد قام بإقطاع البلاد والقرى لأفراد البيت السلجوقي[٤]، وسمح لهم بفتح ما يشاءون من البلاد وضمها إليهم بشرط ألا تكون على حساب بعضهم البعض[٥]، وكانت مرو من نصيب أخيه جغري بك[٦].

ولقد اعتبر سلاطين السلاجقة العظام الإقطاع نوعًا من المنح والهدايا التي تقر بها عيون الأتباع، فيذكر الراوندي أن الطرق كثيرة لشكر نعمة الله، ولكن

---

(١) الثعالبي: لطائف المعارف ٢٢٦، الحميري: الروض المعطار ٥٣٣.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ٤/ ٣٩٤.

(٣) سامية توفيق: الثروة الزراعية ٢٦٩.

(٤) محمد السعيد: دولة الإسماعيلية ٩٩.

(٥) الراوندي: راحة الصدور ١٦٧.

(٦) عباس إقبال: الوزارة في عهد السلاجقة ٥٩- ٦٠، طه ندا: تاريخ الحكم التركي في إيران ٤٢.

obeikandl.com

خيرها حق رعاية الحقوق، لذلك أقطع السلطان خواصه الإقطاعات[١]، فعندما قرر السلطان ألب أرسلان أخذ البيعة لابنه ملكشاه بالسلطنة، ووافق الأمراء على ذلك خلع عليهم وأقطعهم الإقطاعات فكانت مرو لابنه أرسلان شاه[٢].

وعندما تقلد السلطان ملكشاه السلطة، قام وزيره نظام الملك بتعميم الإقطاع العسكري الحربي[٣] عندما قام بتوزيع الأراضي على الجند على هيئة إقطاعات حتى يتمكن من تحصيل الأموال من البلاد وعمارة الأرض، كما هدف نظام الملك من تعميم الإقطاع توفير أرزاق الجند وزيادة الرقعة الزراعية؛ وبالتالي زيادة الإنتاج وتوفير المحصولات، وتيسير إدارة الدولة السلجوقية[٤].

ولتنفيذ ذلك وضع عدة شروط؛ منها: أن يؤدي المقطع الخراج المقرر على إقطاعه نقدًا أو عينًا، ويكون مسئولًا عن كافة منشآت الري في إقطاعه كما يقوم بشق وتطهير الترع وإقامة السدود والمحافظة على الأرض الزراعية، وكذلك أن يلتزم المقطعون والعمال بحسن معاملة الرعية، ولا يحصلون منهم الخراج إلا إذا نضج المحصول، وأن يقدموا للمزارعين كل ما يحتاجون إليه من بذور ومواشي وغيره[٥].

وفي الواقع كان الإقطاع في العصر السلجوقي استغلالًا للأرض؛ بمعنى

(١) الراوندي: المصدر السابق ذكره ٢٠٢- ٢٠٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١٠/ ٥٠، ابن خلدون: العبر ٣/ ٩٧٣.

(٣) المقريزي: الخطط ١/ ١٥٣- ١٥٤.

(٤) إبراهيم طرخان: النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط ٢٢- ٢٤، القاهرة ١٩٦٨م.

(٥) نظام الملك: سياست نامه ٥٨.

أن المقطع له حق استغلال الأرض دون امتلاكها[١]، ورغم أن الإقطاع كان مرتبطًا بخراج الأرض وليس الأرض ذاتها، إلا أنه كان من حق المقطع أن يحكم إقطاعه حكمًا مطلقًا ويمارس امتيازات كثيرة مقابل أن يدفع للسلطان مبلغًا سنويًّا من المال، ويكون في خدمته زمن الحرب، والمقصود هنا أن الإقطاع كان يشمل الحكم والإدارة[٢].

وكان مهمة المقطع تحصيل الأموال المقررة على الأراضي الزراعية إلى الضامن مقابل مبلغ من المال[٣] حيث كان أساس الجباية في نظام الإقطاع هي التضمين؛ بمعنى أن يتعهد شخص بدفع ما على جهة معينة من المال السلجوقي بمبلغ مقدر، وفي هذه الحالة يكون الخراج جزءًا من مال الضمان، والضامن حينئذ أشبه ما يكون بالمستأجر، فكان عليه أن يدفع مال ضمانه نقدًا أو عينًا[٤].

وفي النهاية كان النظام الإقطاعي ناجحًا في بدايته وقد خدم الدولة السلجوقية في عصر سلاطينها العظام؛ بفضل مراقبتهم المستمرة للمقطعين[٥]، والتزام المقطعين بأوامر السلطان وتعاليمه[٦]، ورويدًا رويدًا مع ضعف الدولة السلجوقية استشرى الفساد والطمع بين المقطعين وزاد التنافس بينهم وعولوا على الاستقلال عن الدولة، ومن ثم ظهرت نتائجه الوخيمة[٧] التي أثرت سلبًا

(١) إبراهيم طرخان: المرجع السابق ذكره ٢٢.
(٢) الراوندي: راحة الصدور ٢٠٥.
(٣) الماوردي: الأحكام السلطانية ٢٥٤- ٢٥٥.
(٤) أبو يوسف: الخراج ٦٠.
(٥) حسين أمين: تاريخ العراق ٢١٠- ٢١٢.
(٦) نظام الملك: المصدر السابق ذكره ٨٥.
(٧) د/ حسن أحمد محمود وأحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي ٥٨٢.

obeikandl.com

على الدولة السلجوقية وزادت من انهيارها وضعفها.

ورغم تعميم النظام الإقطاعي في مدينة مرو إلا أنه لم يتعارض مع الملكية الزراعية في المدينة، وذلك لأنه يتعلق بخراج الأرض وليس للأرض ذاتها، وقد وجدت بعض الملكيات الخاصة بالفلاحين وحرص سلاطين السلاجقة على عدم إرهاقهم بالخراج، وتوفير كل ما يلزمهم في الزراعة[١] حتى إن السلطان ألب أرسلان كان يقنع بأخذ قيمة الخراج على مرتين في العام لعدم إرهاقهم[٢].

الثروة الحيوانية

تتمتع مرو بثروة حيوانية كبيرة نتيجة توافر المراعي بها، حيث كان هناك الأراضي الغنية بالعشب والحشائش، كما اشتهرت مرو بنبات ينمو بها يعرف بالإشترغاز، وكان من كثرته ينقل إلى العديد من المناطق المجاورة[٣].

وتربية الحيوانات في مرو من الأمور الهامة والحيوية؛ فهي تمد الأهالي بالغذاء ووسائل النقل والمواد الخام اللازمة للصناعات[٤]، وتميزت مرو بتنوع الثروة الحيوانية بها حيث توفرت لديها أعداد كبيرة من الأبقار لاستخدامها في الزراعة والاستفادة من لحومها وألبانها[٥]، وأيضًا الإبل التي استخدمت في النقل[٦]، كما انتشرت بالمدينة الدواب[٧] من البغال والحمير لأهميتها في أعمال

(١) نظام الملك: سياست نامه ٥٨.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٥٨٨، الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ٧٠.

(٣) ابن حوقل: صورة الأرض ٤٢٦.

(٤) المقدسي: أحسن التقاسيم ٣٢٤.

(٥) لسترانج: بلدان الخلافة الشرقية ٤٤٣.

(٦) قحطان الحديثي: التنظيمات الاقتصادية لخراسان ١٢٠.

(٧) البلاذري: فتوح البلدان ٥٠٢.

openkandil.com

النقل والزراعة.

أيضًا تعتبر الأغنام من أهم مصادر الثروة الحيوانية في مرو، فقد بلغ عدد الأغنام التي استولى عليها التراكمة من أهالي مرو أثناء الغزو المغولي ما يزيد على ستين ألف رأس من الغنم(١)، كما انتشر في مرو ظاهرة تربية الطيور والدواجن في المنازل، وتميز إنتاجهم بالكثرة والوفرة(٢)، كذلك اهتم أهل مرو بتربية دودة القز التي قامت عليها صناعة الحرير(٣).

ومن الثابت تاريخيًّا أن الثروة الحيوانية قد أسهمت بنصيب كبير في تقدم اقتصاد مرو خلال العصر السلجوقي حيث ساعدت على توفير اللحوم والألبان وغيرها من المنتجات الحيوانية التي تدخل في صناعتهم سواء للاستهلاك الغذائي أو كمادة خام.

الصناعات

ازدهرت الصناعة بمدينة مرو ازدهارًا كبيرًا، فقد كانت المدينة مقرًّا هامًّا وبارزًا لصناعة مزدهرة وعلى درجة كبيرة من التقدم والإتقان والرقي؛ وذلك لوفرة المواد الخام اللازمة للصناعة إلى جانب وفرة الأيدي العاملة، وسهولة تصريف المصنوعات في الأسواق، وقد ازدهرت صناعات عديدة ومتنوعة في مدينة مرو خلال العصر السلجوقي، نذكر منها:

١- صناعة المنسوجات

احتلت مرو مكانة الصدارة في إنتاج أنواع مختلفة ومتنوعة من المنسوجات الصوفية والحريرية والقطنية؛ مما علت صيته وعظمت شهرته في سائر البلاد

(١) الجويني: تاريخ جهانكشاي ١٥٧.

(٢) السمعاني: الأنساب ٢/ ١٢٠.

(٣) ابن حوقل: صورة الأرض ٣١٦، لسترانج: بلدان الخلافة الشرقية ٤٤٣.

obeikandl.com

خلال العهد السلجوقي، وكان العرب يطلقون على كل ثوب صفيق جيد بالمروى، وكل ثوب دقيق بالشاهجاني[١].

ومرو من المدن التي اشتهرت بقطنها الذي يصنع منه أفخر الثياب[٢]، وكان لزراعة أنواع جيدة من القطن أثره في وجود أجواد أنواع المنسوجات القطنية بها، فكانت أنفس ثياب خلال العصر السلجوقي في مرو[٣]، وقد وصف لنا الإدريسي القطن في مرو فقال: ويتجهز منها القطن العجيب الذي ينسب في سائر الأقطار إليها وهو الغاية في اللين ويعمل بها منه ثياب تحمل إلى كل الآفاق[٤].

ويمثل العصر السلجوقي قمة ازدهار صناعة النسيج في المدينة حيث بلغت درجة عالية من الدقة والإتقان والكمال؛ وذلك يرجع لعاملين أساسيين هامين: أحدهما ما طرأ على الصناع في العهد السلجوقي من أساليب جديدة تتمثل في دقة الزخارف النباتية والرسم، وقد تأثر أهل مرو بهذا تأثرًا كبيرًا[٥]، والعامل الثاني يتمثل في استخدام الأساليب الإسلامية في زخرفة النسيج، والتي تشمل على الكتابات والأشرطة[٦].

أيضًا اشتهرت مدينة مرو بصناعة الحرير، فكانت من أكبر مراكز صناعة الحرير في خراسان، حيث تخصصت بعض الأسر في صناعته، وحملت أسماؤها هذا المعنى مثل أسرة الديوكش بمرو، وهو بيت مشهور أطلق عليه هذا

(١) الثعالبي: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ٤٣١، القاهرة ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م.

(٢) السيد محمد عاشور: صناعة الأقمشة وتجارتها ٣/ ٢١، القاهرة ١٩٩١م.

(٣) الأصطخري: المسالك والممالك ٢٨٢، اليعقوبي: البلدان ٢٧٩.

(٤) Dury,A rt of islam,New york p .99 ,1971

(٥) Dury,Art of islam ,New york p .100 - 99

(٦) زكي محمد حسن: الفنون الإيرانية في العهد الإسلامي ٢٤٨، القاهرة ١٩٤٦م.

openkanal.com

الاسم؛ لأن أهله كانوا يعملون بصناعة الإبريسم، فيشترون القز ثم يقتلون دوده بالشمس[١]، وقد نبغت مرو بأنواع مختلفة من الحرير[٢] من ديباج وخز، وكما كانت تصنع ثياب الإبريسم الذي كان يصدر إلى جميع الجهات[٣]، وكان مصدر الحرير الخام البساتين وحدائق التوت، وكان الطلب على حرير مرو متزايدًا في القصور والبلاط، وفي المناسبات والاحتفالات، وقد ذاعت شهرة مرو في الآفاق بإنتاج المقانع[٤] والملاحم بالقز[٥] والمصمت[٦] والعتابي[٧] والسقلاطونيات[٨]، أيضًا اشتهرت مرو بصناعة المنسوجات الصوفية[٩].

أما عن طريق صناعة النسيج في مرو، فكانت نفس الطريقة المتبعة في سائر مدن خراسان منذ آلاف السنين، فكانت تبدأ بغزل الخيوط بتحويل الألياف النباتية (القطن والكتان) و(الحيوانية) و(الصوف) إلى خيوط باستخدام المغازل اليدوية، ثم تليها عملية الصباغة[١٠].

ولقد امتازت المنسوجات المصنوعة في مرو خلال العصر السلجوقي بالدقة والمهارة والإتقان والجودة في الصناعة والنسيج معًا، بالإضافة إلى دقة

---

(١) السمعاني: الأنساب ٢/ ٥٣٢- ٥٣٣.

(٢) ابن خرداذبه: المسالك والممالك ١٥٤.

(٣) ابن حوقل: صورة الأرض ٢٧٢، الأصطخري: المسالك والممالك ٢١٢.

(٤) قحطان الحديثي: التنظيمات الاقتصادية لخراسان الصناعة ١٢٥، العدد ٣.

(٥) مرتضى راوندي: تاريخ اجتماعي إيران ٥٦٣.

(٦) الثعالبي: لطائف المعارف ١٤٠.

(٧) عطية القوصي: الحضارة الإسلامية ١٢٠.

(٨) ابن الصابئ: رسوم الخلافة ٩٠.

(٩) قحطان الحديثي: أرباع خراسان ٣٣٩.

(١٠) Corl Johon Lamm Cotton in Medievol Textiles of The Neoreost, Paris 1973 p. 7- 8.

openkanal.com

الرسم وخفة وزنها وجمال رسوماتها، كما غلب على زخارفها الأشكال الهندسية متعددة الأضلاع بداخلها كتابات كوفية أو أشرطة ورسوم حيوانية ودوائر بها طيور وحيوانات، وقد أضفى ذلك كله على المنسوجات شكلًا جماليًّا وفنيًّا رائعًا، كما غلب على الرسومات البساطة مع تصوير الأشكال بحجم أكبر مما أبرز دقتها وجمالها(١).

٢- صناعة السجاد

نالت صناعة السجاد وغيرها من المفروشات شهرة واسعة بمدينة مرو خلال العصر السلجوقي(٢)، ومرجع هذه الشهرة ترجع إلى تشجيع السلاطين والملوك والأمراء، واتفاقهم بسخاء على الفرش والأبسطة من أجل إبراز الأبهة والخبرة في تطويرها حتى أن العديد من العمال كانوا يمكثون في العمل لعدة شهور طويلة لإنتاج سجاد يسر الناظرين(٣).

ومن أنواع السجاجيد والمفروشات: الستائر المعلقة على الحيطان والبسط التي على أرض الغرف والصحون والممرات، وكذلك الأنماط وهي تفرش على الأرض للنظر دون الدوس، بالإضافة إلى أنواع أخرى صغيرة؛ منها: سجاجيد الصلاة والأغطية والنمارق والمقاعد ونحوها من أنواع الوسائد(٤).

٣- صناعة استخراج الزيوت ومشتقاتها

تلعب هذه الصناعة أهمية كبيرة في مدينة مرو في العصر السلجوقي، لذلك

---

(١) Sylvia Matheron Apersio on Archaeological,London 1979p 113

(٢) زكي محمد حسن: الفنون الإيرانية في العهد الإسلامي ٢٣٧.

(٣) آدم متز: الحضارة الإسلامية ٢/ ٢٩٥.

(٤) آدم متز: الحضارة الإسلامية ٢/ ٢٩٥

Encyclopedia Americana Vol.20p.350 .

obeikandl.com

عني أهل المدينة بهذه الصناعة، كما عنوا ببعض مشتقاتها كالعطور على الرغم من أنها ضربٌ من ضروب الترف، وكانت مدينة مرو من أهم مراكز استخراج الزيوت من بذرة الكتان والشريج الذي هو دهن السمسم(١)، كما اهتمت مدينة مرو بزراعة الزيتون، فقامت عليه صناعة الزيوت(٢).

٤- صناعة الجلود

تعتبر صناعة الجلود في مدينة مرو إحدى الصناعات التقليدية نتيجة طبيعية لوجود أعداد ضخمة من الحيوانات التي كانت تُربى في مراعيها الخصبة، وكان لهذا أثره في قيام صناعات جلدية(٣) بها وبصفة خاصة من الملبن(٤)، ونشأت صناعة دبغ الجلود، واشتهرت مرو أيضًا بجلود الضأن التي يطلق عليها بالمدينة السختيان(٥).

وهكذا ترتب على توافر الجلود قيام بعض الصناعات منها صناعة الرطب المروزية الشهيرة والأحذية والسراجة والمكاعب والجعات والمداسات التي اشتهرت بها عائلة الداغوني واختصوا بها(٦).

٥- الصناعات الخشبية

كانت صناعة الأخشاب في مدينة مرو من أهم الحرف الصناعية، وقد

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ٣٢٤، قحطان الحديثي: أرباع خراسان ٣٣٩.
(٢) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ٤٥٦، الثعالبي: لطائف المعارف ٢٢٦.
(٣) قحطان الحديثي: التنظيمات الاقتصادية لخراسان الصناعة ١٢٥ العدد ٣.
(٤) الثعالبي: لطائف المعارف ٢٠٢.
(٥) السمعاني: الأنساب ٣/ ٢٣٢- ٢٣٣.
(٦) المقدسي: أحسن التقاسيم ٣٢٥، الهمذاني: مختصر كتاب البلدان ٥٠، قحطان الحديثي: أرباع خراسان ٣٣٩، ابن حوقل: صورة الأرض ٣٧٠.

obeikandl.com

اعتمدت هذه الصناعة على جذوع الأشجار وأغصانها الموجودة في[١] مرو، ولما كان الإقبال عليها كبيرًا سواء في الصناعة أو التدفئة، فقامت مرو باستيراد خشب الساج الهندي، وهذا النوع يعد أحسن ما يستعمل في بناء البيوت، أما أثاث المنازل فكان يصنع من أخشاب غابات مازندران التي تتميز ببياض لونها المائل إلى الحمرة[٢]، وقد برع الصناع في مرو في صناعة الأثاث والمناضد والمكانس[٣]، كما نبغوا في صناعة الزخرفة الخشبية المحفورة والمنقوشة في عمل التحف والأدوات والأواني المنزلية[٤].

٦- الصناعات الغذائية

اشتهرت مدينة مرو بإنتاج العديد من الفواكه، وكان طبيعيًّا أن تقوم عليها عدة صناعات كتجفيف الفواكه، ومن أهم هذه الصناعات: صناعة الزبيب التي تقوم على محصول العنب، حيث يتم بذره وتجفيفه، وتعد مرو من أشهر البلاد إنتاجًا للزبيب الذي لا نظير له، وكان يحمل إلى سائر الآفاق[٥]، وأيضًا صناعة تجفيف البطيخ التي تتميز بها مرو في سائر البلاد، وتجفيف الكمثرى والشمام وتصديرها إلى بلدان خراسان وخارجها[٦].

كذلك كان لانتشار زراعة قصب السكر في المدينة أثره في قيام صناعة السكر وأنواع كثيرة من الحلوى والملابن[٧]، وعرفت أيضًا مرو بصناعة حفظ

(١) قحطان الحديثي: التنظيمات الاقتصادية لخراسان الصناعة ١٢٨- ١٢٩، العدد ٣.
(٢) الهمذاني: مختصر كتاب البلدان ٥٠.
(٣) الثعالبي: لطائف المعارف ٤٢٠، ثمار القلوب ٥٤٢.
(٤) قحطان الحديثي: المقالة السابقة ١٢٩، العدد ٣.
(٥) سامية توفيق: الثروة الزراعية ٢٦٩، لسترانج: بلدان الخلافة الشرقية ٤٤٢، القلقشندي: صبح الأعشى ٤/ ٣٩٤.
(٦) ابن حوقل: المسالك والممالك ٣١٦، الروض المعطار في خبر الأقطار ٥٣٣.
(٧) الثعالبي: ثمار القلوب ٥٤٢، السيوطي: لب اللباب ٢/ ٢١.

Encyclopedia Americana,Vol .20p. 349

obeikandl.com

الفاكهة، فقد وضح لنا ابن الفقيه الهمداني فقال: إن البطيخ كان يحفظ داخل صناديق رصاصية مغطاة بالثلج[١].

فلما اشتهرت مرو بالثروة الحيوانية فقد نتج صناعة منتجات الألبان من الأبقار والجاموس والماعز وغيرها، وذاعت شهرتها في هذه الصناعة[٢].

٧- الصناعات المعدنية

ارتبطت الصناعات المعدنية في مرو خلال العهد السلجوقي بمعدني الذهب والفضة ارتباطًا وثيقًا؛ وذلك لصناعة الحلي والمجوهرات؛ نظرًا للإقبال الشديد عليها من قبل الأميرات السلجوقيات[٣] والنساء الثريات في المدينة حيث أقبلن على شراء واقتناء الكثير من الحلي للتزيين بها، وقد ظهرت مهارة الصانع في تطويره أسلوب زخرفة الحلي المتنوعة كالخواتم والأساور والقلائد والأقراط بالأسلاك الذهبية في أشكال هندسية جميلة وإضافة حبيبات صغيرة إليها[٤].

كما عرفت المدينة صناعة المعادن بشتى أنواعها؛ فصنعوا التحف من المعادن النفيسة مثل الذهب والفضة، كذلك صنعوا الأدوات من المعادن الرخيصة كالبرونز والحديد[٥]؛ وبالتالي تنوعت وتفاوتت صناعة المعادن في مرو وفقًا لحاجات كل طبقة من سكانها، فمثلما صنعوا أدوات كالأكواب والأباريق والشمعدانات والتماثيل والهاونات والمرايا من الذهب والفضة

(١) الهمذاني: مختصر كتاب البلدان ٢٥٥.

(٢) اليعقوبي: البلدان ٢٧٩.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم ٨/ ٧٨.

(٤) د/ عبد الرحمن زكي: الحلي في التاريخ والفن ١٣٧، دار القلم-القاهرة ١٩٦٥م.

(٥) د/ سعاد ماهر: الفنون الإسلامية ١٢٩- ١٣٠، ديماند: الفنون الإسلامية ١٤٦، ترجمة: أحمد محمد عيسى-دار المعارف-القاهرة ١٩٨٢م.

obeikandi.com

لطبقة الأثرياء، كما صنعوا أدوات مثلها من الحديد والمعادن الرخيصة الأخرى لاستعمال عامة الناس[١].

أتقن الصناع في مرو إنتاج المصنوعات المعدنية المختلفة من أكواب وغلايات وأهوان[٢] وغيرها، ومن أشهر هذه التحف المعدنية شمعدان كتب عليه اسم السلطان سنجر، وهو محفوظ في متحف الفنون الجميلة ببوسطن، ومؤرخ بعام ٥٣٢هـ/ ١١٣٧م وعليه زخارف ورسومات آدمية وحيوانية[٣].

كما بلغت المعادن قمة ازدهارها وكمالها في العصر السلجوقي بفضل ابتكار صانعي مرو لأسلوب صناعة التكفيت والتي تقام أساسًا على التزيين والرسم معًا، وتعتبر مدينة مرو بلا مراء منبت صناعة التكفيت التي بلغت درجة عالية فيها وأصبحت الأساليب الفنية التي ابتكرها صناع المدينة مثلًا يُحتذى به في كل بلاد الشرق الأدنى، وقد أنتج هؤلاء الصناع أواني من البرونز والنحاس ثم كفتوها بالفضة، وكفتوا أيضًا المصنوعات الفضية بالذهب والعكس[٤].

ومن الصناعات المعدنية الأخرى في مدينة مرو صناعة الأقفال التي بلغت دقتها حيث صنع القفال المروزي قفلًا يصل وزنه إلى طسوج، فقام منافسه القفال الشاسي بصناعة قفل وزنه دانق[٥].

---

(١) دونالد ولبر: إيران ماضيها وحاضرها ٦٥.

(٢) البيروني: الجماهر في معرفة الجواهر ٢٦٤، حيدر أباد الدكن ١٩٥٨م.

Michael Herrson,The Art of gron ,London 1965,p. 88

(٣) دونالد ولبر: إيران ماضيها وحاضرها ٦٥، ديماند: الفنون الإسلامية ١٤٦.

(٤) أوقطاي أصلان: فنون الترك وعمائرهم ٢٦٣.

(٥) ياقوت الحموي: معجم البلدان (٥/ ١١٦)، القزويني: آثار البلاد ٤٥٩.

openkanar.com

٨- صناعة الزجاج

ازدهرت صناعة الزجاج في مدينة مرو خلال العصر السلجوقي، فقد استخدم صناع الزجاج في المدينة أساليب صناعية عديدة في زخرفة الزجاج؛ منها: الحفر والضغط والبرونز والأسلاك الملفوفة، ويعد هذا النوع من الزخرفة أرقى ما وصلت إليه صناعة الزجاج في آنذاك، حيث كان يزين بأسلاك الذهب، كما نجح الصناع أيضا في طلاء الزجاج بالمينا والتموية بالذهب[١].

وانتشر استعمال الأدوات الزجاجية في مدينة مرو؛ وذلك لكثرة إنتاجها وتنوعها، فكانوا يصنعون التحف المتنوعة كالقوارير والزهريات والأكواب والصحون والأباريق[٢] للاستعمال المنزلي أو لحفظ الزيوت والعطور.

٩- صناعة الخزف

تطورت صناعة الخزف تطورًا كبيرًا في مدينة مرو خلال العصر السلجوقي، فكان السلاطين السلاجقة من أكبر رعاة الفنون، فقد جمعوا بقصورهم في مرو الكثيرين من أهل الفن والصناعة، مما شجع الخزفيين على ابتكار أروع أنواع الخزف الإسلامي[٣] حيث إنهم استخدموا الزخارف المحفورة، والبارزة والمخرمة والمجسمة، كما عرفوا معظم أنواع الخزف، وصنعوا كافة الأحجام والألوان، كذلك برعوا في رسم الصور الآدمية والحيوانية والزخارف المعمارية على الصحون والأباريق والبلاطات

(١) قحطان الحديثي: التنظيمات الاقتصادية لخراسان الصناعة ٣٢، العدد ٣.

(٢) ديماند: الفنون الإسلامية ٢٣٠.

(٣) ديماند: المرجع السابق ذكره ١٨١.

obeikandl.com

وغيرها[١].

كما صنع الخزافون أيضًا أشكالًا جديدة كالتماثيل والمحاريب، وكانت هذه التماثيل تستخدم كآنية للزهور أو كشماعد أو كأباريق، وكانت كلها في غاية البساطة والدقة[٢]، ومما ساعد على ازدهار صناعة الخزف بمرو وفرة الخامات الجيدة لهذه الصناعة (الطينية) التي مكنتهم من إنتاج أدوات وأواني جيدة تمتاز بالرقة وخفة الوزن[٣].

ومن الثابت تاريخيًّا أن صناع مدينة مرو قد تجمعوا فيما يشبه النقابات حيث تجمع أصحاب كل حرفة أو صنعة مع بعضهم البعض في مكان خاص بهم وكان دائمًا بالقرب ورشهم[٤]؛ مما يوحي بوجود روح التكتل الجماعي البسيط والتقارب لأصحاب المهنة الواحدة، وقد أخذت معظم المحال السكينة بالمدينة أسماء حرف سكانها، فهناك محلة القلانس ومحلة الحدادين ومحلة البزازين وغيرهم الكثير[٥]، فقد أصبحت مدينة مرو قلعة صناعية في العهد السلجوقي.

---

(١) زكي محمد حسن: فنون الإسلام ٢٧٤- ٢٧٥.

(٢) جمال عبد الرحيم إبراهيم: الفنون الزخرفية الإسلامية في العصرين الأيوبي والمملوكي ٣- ٤ القاهرة ٢٠٠٠م، سعاد ماهر: الفنون الإسلامية ٢٩.

(٣) قحطان الحديثي: التنظيمات الاقتصادية لخراسان الصناعة ١٣٢، العدد ٣.

(٤) علي أصغر فقيهي: آل بويه وأوضاع زمان إيشان، جابخانة كيلان ٧٧٨- ٧٨٠، ١٣٥٧هـ.

(٥) قحطان الحديثي: المرجع السابق ذكره ١٣٩، العدد ٣.

openkandil.com

ثالثًا: التجارة

تمهيد:

ازدهرت الحركة التجارية في مدينة مرو في العهد السلجوقي نيتجة لازدهار الزراعة وكثرة المحاصيل الزراعية، فضلًا عن تقدم الصناعة، كما كان لتشجيع سلاطين السلاجقة أثره في زيادة النشاط التجاري بالمدينة.

١- التجارة الداخلية

نشطت التجارة الداخلية بمدينة مرو التي كانت مركزها الأسواق[١]، ويعتبر السوق عنصرًا رئيسيًّا ممن مقومات مدينة مرو، وعادة كانت الأسواق تحيط بالمسجد، كما كانت أسواق مدينة مرو على باب المدينة بجوار المسجد العتيق[٢] ومع التطور العمراني وازدياد أعداد السكان نُقلت الأسواق إلى وسط المدينة وغرب نهر الماجان[٣].

وتمثل الأسواق مركز النشاط التجاري، فتقيم كل طائفة من التجار في قسم من هذه الأسواق حيث كانوا يمكثون إلى ما بعد الظهر، ولا يعودون إلى منازلهم إلا في الليل، حيث كانت الأسواق تفتح أبوابها صباح كل يوم فتكون مليئة بالحركة حتى المساء[٤]، ويعتبر السوق مركزًا هامًّا لاستقطاب التجارة ومجالًا حيويًّا للنشاط المالي، وبهذا يعد عنصرًا أساسيًّا في رخاء المدينة وازدهار حياتها الاقتصادية والاجتماعية، لذلك كان الاهتمام بالسوق أمرًا ضروريًّا

(١) الثعالبي: التمثيل والمحاضرة ٤٧٢، القاهرة ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م، الجاحظ: المحاسن والأضداد ٩١، القاهرة ١٩٧٨م، آدم متز: الحضارة الإسلامية ٢/ ٣٢٥.

(٢) الأصطخري: المسالك والممالك ١٤٨، ابن حوقل: صورة الأرض ٤٢٥.

(٣) لسترانج: بلدان الخلافة الشرقية ٤٤١.

(٤) قحطان الحديثي: أسواق المدن الخراسانية ١١٥.

obeikandl.com

لإظهاره بشكل يناسب مكانة المدينة في النواحي الجمالية والتنظيمية[١]، ويذكر لنا الأصطخري عن أسواق مدينة مرو بأنها كانت من أنظف أسواق الأمصار وأحسنها تنظيمًا واتساعًا، ويؤيده في ذلك المقدسي[٢].

ومن مظاهر تنظيم الأسواق في مدينة مرو تخصصها، فكانت تنقسم إلى عدة أقسام حسب السلع التي تباع به[٣] حيث نجد سوقًا كبيرًا للفاكهة تباع به أنواع الفاكهة المختلفة[٤]، وكان بأسواق الفاكهة الفاميون الذين يبيعون الفواكه اليابسة[٥]، وأيضًا سوق البزازين وبه البزازون الذين يقومون بتجارة الأقمشة[٦]، كما يوجد به القماص الذي يبيع القمصان[٧]، ومن هذه الأسواق المتخصصة أيضًا سوق الأساكفة الذي يوجد به باعة الأحذية، ويطلق عليهم (الداغوني)[٨]، وأيضًا سوق لبيع الغلال وأهمها[٩] الحنطة.

ومن ضمن أسواق مرو أيضًا: سوق للزينة حيث يشمل عدة محلات للصناعة[١٠]، وكان لكثرة عدد الأسواق وتخصصها وازدياد عدد المتعاملين فيها أثره في وجود سوق الصرافين، كما وجدت بعض التجارات والبضائع

(١) قحطان الحديثي: أسواق المدن الخراسانية ١١٣.
(٢) الأصطخري: المسالك والممالك ١٤٨، المقدسي: أحسن التقاسيم ٣١٠.
(٣) أبو الفدا: تقويم البلدان ٤٥٧.
(٤) ابن بطوطة: رحلته ٢٠٢، ياقوت الحموي: معجم البلدان ٥/ ١١٤.
(٥) السمعاني: الأنساب ٤/ ٣٤٣.
(٦) الذهبي: العبر ٢/ ٣١٠.
(٧) السمعاني: المصدر السابق ذكره ٤/ ٥٣٩.
(٨) السمعاني: المصدر السابق ذكره ٢/ ٤٤٥، قحطان الحديثي: أرباع خراسان ٣٣٩.
(٩) قحطان الحديثي: المرجع السابق ذكره ٣٣٥.
(١٠) قحطان الحديثي: أسواق المدن الخراسانية ١١٨.

obeikandl.com

التي تصنع في السوق نفسه، منها على سبيل المثال: صناعة الأواني والخزف، والمصوغات الذهبية في سوق الصاغة، وكذلك الصناعات الجلدية كالأسراجة والأحذية وبعض المصنوعات النسيجية والحياكة والملابس(١).

هكذا ازدهرت أسواق مرو بكافة المنتجات، ونشطت التجارة الداخلية خلال العهد السلجوقي، وذلك للازدهار الزراعي والصناعي الكبير في المدينة، وحرص سلاطين السلاجقة على توفير سبل الأمن والحماية للتجارة والمشترين على السواء، ومما يؤكد ذلك مجموعة الحراس الذين كانوا يجوبون السوق منذ الصباح مع فتح الدكاكين لحماية المشترين والتجار من خطر اللصوص، وتستمر حراستهم للسوق بعد إغلاقه فيطوفون به طوال الليل وحتى اليوم التالي، وكان أهم ما يميز هؤلاء الرجال اليقظة والقوة(٢).

وكانت الأسواق تخضع لإشراف المحتسب، ونظرًا لأهمية هذه الوظيفة حرص السلاطين السلاجقة على تكليف مَن يوثق فيهم من الرجال، وكان المحتسب يشرف على ضبط الموازين والمكاييل ويحدد الأسعار ويضبط عملية البيع والشراء حتى يمنع الغش(٣)، كما كان يراقب كل ما يجلب من الأطراف ويباع في الأسواق مراقبة شديدة؛ ليتأكد من سلامة البضائع الواردة، ويقوم بعمليات تفتيش مفاجئة على الأوزان حتى يقوم التجار بالقسط فيها، كذلك يمنع احتكار البائعين للسلع(٤)، وكان يقوم أيضًا بإرسال منادٍ في المدينة عند وقوع الغلاء حتى يحتاط الناس قبل وقوعه(٥)، ولا شك أن المحتسب قد حظي

(١) قحطان الحديثي: المرجع السابق ذكره ١١٨.
(٢) منتخب الدين الجويني: عتبة الكتبة ١٢٠.
(٣) نظام الملك: سياست نامه ٨٠، إبراهيم دسوقي الشهاوي: الحسبة في الإسلام ٨٣.
(٤) الشيرازي: نهاية الرتبة في طلب الحسبة ١٤- ١٥.
(٥) منتخب الدين الجويني: عتبة الكتبة ١٢٠.

برعاية وتأييد سلاطين السلاجقة، وذلك لشعورهم بأهمية وظيفته باعتبارها ركيزة من ركائز استتباب الأمن والعدل بالمدينة.

وإلى جانب هؤلاء الموظفين الموكلين من قبل الدولة لضبط عمليات البيع والشراء في الأسواق كان يوجد لكل طائفة من التجار نقابة، وقد تجمعت هذه النقابات في نقابة كبيرة تسمى نقابة التجار يرأسها تاجر عظيم عادة ما يكون أكبر التجار سنًّا ويعرف باسم (الشاهبندر)، وكان على معرفة بكل صغيرة وكبيرة وكافة العلاقات بين التجار[١]، وكان هذا الرجل ذا مكانة مرموقة عند الطبقة الحاكمة، حيث كان يزودهم بما يحتاجون إليه من البضائع، وفي الوقت نفسه كان يمثل حلقة الوصل بين التجار والحاكم[٢]، وكان يساعده عدد من التجار يتولون معه تصريف الأمور الخاصة بطوائفهم، حيث كان التجار مجموعة من التقاليد والأعراف يتمسكون بها في حياتهم ويحتكمون إليها عند وقوع أي خلاف فيما بينهم[٣].

ولا شك أن هذا النظام كان معروفًا في كل بلدان العالم الإسلامي، وبفضله نشطت التجارة ونالت رواجًا كبيرًا في مدينة مرو خلال العهد السلجوقي.

٢- التجارة الخارجية

ازدهرت التجارة الخارجية في مدينة مرو خلال العصر السلجوقي؛ ويرجع ذلك لوقوعها على طريق التجارة الرئيسي الذي يربط بين الشرق

(١) د/ حسين مؤنس: عالم الإسلام ٣٣١، القاهرة ١٩٧٣م.

(٢) ابن خلدون: المقدمة ٢٤٠.

(٣) رحيم زاده صفوي: إيران اقتصادي م٢، ٣٧، جابخانة اتحادية طهران ١٣٠٩هـ.

openkandil.com

والغرب[١]، كذلك لجهود سلاطين السلاجقة ووزرائهم الذين كان لهم دورٌ في انتعاش الحركة التجارية، فقد حرصوا على توفير الأمن في البلاد والطرق التجارية، كما اهتموا بإنشاء الطرق وتزويدها بالآبار والمحطات لتيسير الانتقال عبرها[٢]، كذلك أبطل السلطان ملكشاه المكوس والخفارات التي كانت تتحصل على التجارة في جميع البلاد[٣].

وحرص نظام الملك على إقامة العدل وتوفير الأمن في كل أنحاء البلاد حتى أصبحت الطرق آمنة، ومن ثم استمتع الناس بالأمن والطمأنينة في عهده، كما أبطل السلطان محمد بن ملكشاه المكوس من كافة المدن قبل وفاته[٤]، كذلك أزيلت كافة المواصير-ما يتحصل من أموال على التجارة وتجارة المرور-والمكوس في عهد السلطان سنجر، ونقشت الأوامر بذلك سنة ٥٣٣هـ/ ١١٣٩م[٥].

وقد ارتبطت مدينة مرو في العصر السلجوقي بشبكة كبيرة من الطرق التجارية الهامة، وكان أشهرها طريق الحرير العظيم[٦] الذي يمتد من بغداد إلى حلوان، حيث يبدأ من بغداد إلى همدان فقزوين والري ونيسابور ومرو وبخارى وسمرقند فيتفرع إلى طريقين الأول إلى خوارزم والثاني إلى الصين[٧].

ومن الطرق الرئيسية الأخرى التي تخترق مدينة مرو الطريق التجاري من

---

(١) مرتضى رواندي: تاريخ اجتماعي إيران م١، ٤٢٤، رينيه غروسيه: جنكيزخان ٣٠٨.
(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/ ٢٨٥.
(٣) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٦٩.
(٤) ابن الوردي: تتمة المختصر ٢/ ٢٤.
(٥) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٧٨، النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب ٢٦/ ٣٧٢.
(٦) عبد العزيز الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي ١٥١، بغداد ١٩٤٨.
(٧) أرثر كريستن: إيران في عهد الساسانية ١١٥، ترجمة يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٥٧م.

شمال روسيا إلى الشرق عن طريق بحر قزوين، ومنه تنتقل التجارة إلى مرو وبلخ وبخارى وسمرقند ومنها إلى الصين[١]، وإلى جانب هذه الطرق الرئيسية وجدت طرق فرعية؛ منها الطريق الذي يبدأ من مرو ويجازي نهر مرو صاعدًا إلى مرو الروذ ثم يلتقي بطريق قادم من هراة، ثم يمضي إلى بلخ والحدود الشرقية فيما وراء نهر جيحون[٢].

أما وسائل النقل التي استخدمت في هذه الطرق فهي الإبل والخيول والبغال[٣]، وكان يصل عدد جمال القافلة إلى أربعة آلاف وسبعمائة جمل، وكانت القافلة تتوقف في طريقها حتى تنال قسطًا من الراحة ثم تواصل سفرها[٤].

ولما كانت مرو من المدن التجارية الهامة ومحطة من محطات التجارة الرئيسية في العهد السلجوقي فكان من الضروري إنشاء بعض المنشآت والمؤسسات التجارية حتى تستريح بها القوافل، ومن أهم هذه المؤسسات الخانات[٥]، والخان عبارة عن مبنى ضخم يتكون من مجموعة كبيرة من الحوانيت ومستودعات للبضائع ويشبه المركز التجاري في عصرنا الحالي، وبه أماكن لمبيت التجار ومكان لحفظ دوابهم ودورات المياه[٦]، وعادة ما يتكون

---

(١) د/ عصام عبد الرءوف الفقي: تاريخ الإسلام السياسي في جنوب غرب آسيا في العصر التركي ١٧٧.

(٢) لسترانج: بلدان الخلافة الشرقية ٢٤.

(٣) طارق فتح سلطان: العلاقات التجارية بين العرب والصين ١٢٩- ١٣٠، مجلة آداب الرافدين، العراق، العدد ١٣.

(٤) ول ديورانت: قصة الحضارة ٢/ ١٠٩.

(٥) أحمد توفيق: تاريخ العمارة ٢/ ٢٤٩.

(٦) أحمد توفيق: المرجع السابق ذكره ٢/ ٢٤٩، زكي محمد حسن: الفنون الإيرانية ٥.

الخان من طابقين؛ يخصص الدور العلوي لمبيت التجار في حين يستخدم الدور الأول كمخزن لبضائعهم[١].

ومن المنشآت التجارية الهامة أيضًا الفنادق[٢]، ويسكن هذه الفنادق كبار التجار ميسورو الحال، ويتكون المبنى من حوش يحيط به مبان من الجهات الأربع، ويتكون الفندق من طابقين يخصص الطابق العلوي لمبيت التجار ويتكون من عدة غرف، أما الطابق الأرضي فيخصص لإيواء الحيوانات أو لتخزين التجار[٣].

وقد ارتبطت مدينة مرو بعلاقات تجارية قوية مع الكثير من المدن حيث قامت بتصدير ما يفيض من إنتاجها الزراعي والصناعي والمعدني، ومن أشهر صادراتها القطن الجيد[٤] والمنسوجات القطنية والحريرية[٥] والطنافس والبز والشبيرج والأدوات النحاسية والإشترغاز الذي يحمل إلى كثير من البلاد[٦] والأعناب[٧] والزبيب الذي يفضل على غيره من سائر البلاد[٨] والبطيخ المقدد الذي يصدر إلى العراق[٩].

---

(١) منظمة العواصم والمدن الإسلامية: ٤٧٧، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

(٢) د/ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ٣/ ٣٣٠.

(٣) أحمد توفيق: المرجع السابق ٢/ ٢٤٩.

(٤) أبو الفدا: تقويم البلدان ٤٤٦، رينيه غروسيه: جنكيزخان ٣٠٨.

(٥) أبو الفدا: المصدر السابق ذكره ٤٤٦.

(٦) بدر عبد الرحمن محمد: الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في العراق ٢٧٨، الجاحظ: التبصر بالتجارة ٣٧ دار الكتاب الجديد ١٩٦٦م، لسترانج: بلدان الخلافة الشرقية ٤٧٢.

(٧) السمرقندي: جهار مقاله ٣٩.

(٨) الأصطخري: المسالك والممالك ٢٦٦، اليعقوبي: البلدان ٢٨٠.

(٩) ابن حوقل: المسالك والممالك ٣١٦، أبو الفدا: تقويم البلدان ٤٥٧.

openkandil.com

واقتصرت واردات مرو على السلع التي لا تتوفر بها فكانت تستورد الإبل من بلاد التركستان لزيادة الطلب عليها لتردد القوافل التجارية العابرة والتي كانت تحتاج إلى استبدال إبل قوافلها حتى تواصل سيرها[١]، كما استوردت الرقيق لزيادة الطلب عليهم في العهد السلجوقي[٢]، واستوردت أيضًا السمور والثعالب والسنجاب والشمع والعسل والبندق والسيوف من بلاد بلغار[٣]، كذلك الأدوية والأحجار الكريمة والخشب والجلود والمسك والحرير الموشى من بلاد الصين[٤]، وأيضًا البورسلين الصيني الجيد، وكانت معظم البضائع التي استوردتها مرو من الصين تتميز بالأحجام الصغيرة، ومعظمها من الكماليات[٥].

كما ورد مدينة مرو سلع ومنتجات من البلاد الأخرى التي كانت تمر عبر أراضيها (تجارة المرور)، وكان أهمها أقمشة الحرير المعروف بالدقمش الموشى بالذهب من الصين[٦]، وكذلك أيضًا التوابل والقرنفل والعطور والأقمشة والجواهر والدارصيني والخزف الأبيض[٧] ومن بلاد الهند الفلفل والزنجبيل[٨].

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٢/ ١٠٩.

(٢) . Reuben Levy,The Social Structure of glon , Cambridge,1962 ,p.74

(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم ٣٢٥.

(٤) نظام الملك: سياست نامه ١٩٠.

(٥) Bosworth, The Ghoznavids, P.149

(٦) هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى ٤/ ٢٠٨، ترجمة أحمد محمد رضا، القاهرة ١٩٩٤م.

(٧) القزويني: آثار البلاد ٥٤.

(٨) ابن بطوطة: رحلته ٤٠٧.

openkandi.com

صفوة القول: قامت مدينة مرو خلال العهد السلجوقي بدور كبير في حركة التجارة الخارجية بفضل موقعها على طرق التجارة الرئيسية، وكذلك تشجيع سلاطين السلاجقة برفع المكوس وتأمين الطرق؛ مما أدى في نهاية الأمر إلى انتعاش التجارة وكثرة منتجاتها وتنوعها، ففاقت صادراتها ما تستورده، وانعكس ذلك على مستوى المعيشة وعم الرخاء ولا سيما في عهد سلاطين السلاجقة الأقوياء.

الموازين والمكاييل

ولما كانت حركة البيع والشراء لا تتم إلا بالوزن أو الكيل للبضائع والمنتجات لهذا كان يتم الإشراف على مقدارها بصفة دورية للتأكيد من صحة وزنها(١).

وكان لمدينة مرو أوزانها ومكاييلها؛ ومنها: الفقيز وهو من المكاييل التي تعارف أهلها عليها(٢)، والجريبي من المكاييل التي استعملها أهل مرو وقدره أربع أقفزة(٣)، والدانق وقدره سدس الدرهم والحبة سدس مثقال، والدينار يساوي ستًا وثلاثين حبة والشعيرة ثلث الحبة، والدينار مائة وثماني شعيرات(٤) والمثقال يساوي درهما ودانقين ونصفًا(٥)، أما الرطل فقد اختلف وزنه باختلاف الأماكن والمواضع، والرطل كما هو معروف اثنتا عشرة أوقية.

(١) الدمشقي: الإشارة إلى محاسن التجارة ٦٥، التنوخي: الفرج بعد الشدة ٢/ ٢١٢.
(٢) د/ محمد ضياء الدين الريس: الخراج والنظم المالية ٣٢٨.
(٣) الخوارزمي: مفاتيح العلوم ٤٢.
(٤) أحمد الشرباصي: المعجم الاقتصادي الإسلامي ١٩٤، دار الجيل، بيروت ١٩٧١م.
(٥) الدمشقي: المصدر السابق ذكره ٦٥.

obeikandl.com

رابعًا: المعاملات المالية

١ - العملة

كان أساس التعامل النقدي في مدينة مرو الدنانير والدراهم(١)، ولم يكن العرب المسلمون على معرفة بصناعة العملة حينما فتحوا البلاد، ومن ثم فقد أبقوا على العملة السائدة دون تغيير، وظلت صورة الصليب على النقود البيزنطية، وبيت النار على النقود الفارسية(٢)، وفي عهد عبد الملك بن مروان قام بتعريب العملة وإصلاحها وأمر بجمع هذه العملات من الأسواق وإعادة صهرها وصبغها بالصبغة الإسلامية(٣)، وقد ضربت بمرو عملة عربية خالصة(٤)، كما ضرب بها دنانير ودراهم الأمويين والعباسيين والطاهريين والسامانيين(٥)، وفي عهد السلاجقة ضرب ألب أرسلان نقوده في مرو عندما كان حاكمًا على خراسان سنة ٤٥٣هـ/ ١٠٦١م، وقد وصلتنا من هذه الفترة عملتان(٦).

وكان ينقش على هذه العملات بعض السور القرآنية ولفظ الجلالة واسم الرسول صلى الله عليه وسلم واسم ألب أرسلان ومكان وسنة الضرب على النحو التالي:

---

(١) انستاس الكرملي: النقود العربية وعلم النميات ٢٨- ٢٩، القاهرة ١٩٨٧م، حسان حلاق: تعريب النقود العربية في العصر الأموي ١٥، القاهرة، بدون تاريخ.

(٢) الخوارزمي: المصدر السابق ذكره ٦٧.

(٣) حسني محمد بوصير: الآثار الإسلامية ٢٠٩- القاهرة ١٩٩٦م.

(٤) عبد الرحمن فهمي: فجر السكة العربية ٢٧٩.

(٥) Miles George,Rare islamic cains , New York 1950,p .38 .

(٦) محمد باقر الحسيني: نقود السلاجقة ٥٢، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة القاهرة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

obeikandi.com

مركز الوجه لا إله إلا الله القائم بأمر الله هامش داخلي بسم الله ضرب هذا الدينار بمرو سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة هامش خارجي ﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ﴾ سورة الروم الآية ٤	مركز الظهر محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم عضد الدولة وتاج الأمة ألب أرسلان هامش محمد رسول الله ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ سورة الصف الآية ٩

كما ضرب السلطان ألب أرسلان نقوده في مرو أيضًا بعد توليه السلطنة، ووصلتنا عملتان من هذه الفترة[١] وقد حملتا النقوش السابقة.

وكان التغيير في سنة الضرب واللقب الذي تلقب به ألب أرسلان (شاهنشاه ملك الإسلام)، كذلك ضرب السلطان سنجر أول نقوده في مرو وكان لقبه قبل توليه السلطنة (ناصر الدين ملك المشرق)[٢].

وكانت عملة السلاجقة في بداية الأمر من الذهب حيث كان هناك شبه تعميم لاستعمال الدينار الذهبي في كافة المعاملات المالية[٣]، ولكن بعد أن تقلصت واردات الذهب استخدم السلاجقة العملات الفضية والنحاسية

(١) محمد باقر الحسيني: نقود السلاجقة ٥٢ - ٥٣.

(٢) Stanley Lone Poole, Catalogue of The colletion of Arabic coins,p.109

(٣) R.A.G Carson, Ancient Medieval and Modern coins,p. 48.

obeikandl.com

بصورة أكبر[١].

وقد اختلفت مسميات الدنانير في مرو خلال العهد السلجوقي، فنجد الدينار العوالي في عصر سلاطينها العظام، وكان وزنه ٤٥٠ جم؛ وبالتالي فقد زاد عن الوزن الأصلي للدينار الإسلامي الذي كان وزونه ٤٢٥ جم[٢]، كما شاع استخدام الدينار الركني في عهد السلطان سنجر في مرو، وسائر خراسان، ومما يؤكد ذلك عندما عرض الغز على السلطان سنجر مائتي ألف دينار ركنية مقابل عفوه عنهم[٣].

وكان وزن الدينار ثابتًا في عهد سلاطين السلاجقة الأقوياء، لكنه تناقص أواخر العصر السلجوقي[٤]، والمراد بذلك: أن سلاطين السلاجقة الأقوياء قد حرصوا على سلامة عملتهم وراقبوا مراحل السك وتأكدوا من صحة عياره عند سكه في دار الضرب، وكانت طريقة ضرب النقود تتم بتنقية الذهب والفضة عدة مرات، ثم تقطع كل منهما قطعًا صغيرة ذات أوزان معينة ثم تطرق لتأخذ شكلًا دائريًّا وتطبع بحديدة منقوشة تسمى السكة حتى تظهر الكتابة عليها[٥].

ومما لا شك فيه أن معظم نقود السلاجقة كانت مثقوبة من إحدى جوانبها مما جعل النساء والأطفال يستخدمونها كنوع من التعاليق لما بها آيات

(١) إيرين خرانك: طريق الحرير ١١٧.

(٢) انستاس الكرملي: النقود العربية وعلم النميات ١٠٧، خواندمير: دستور الوزراء ٢٩١.

(٣) Miles George The Numismatic History of Rayy,p.108

(٤) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ٢٥٨.

(٥) محمد باقر الحسيني: المركز العالمي للدنانير والدراهم الإسلامية ١٥٩، المجلة التاريخية العراقية العدد الأول ١٩٧١م.

openkanal.com

قرآنية[١].

وقد حرص سلاطين السلاجقة على ذكر اسم الخليفة العباسي على إحدى وجهي العملة؛ لإضفاء الشرعية على حكمهم، وقد ازدهر الدينار السلجوقي ازدهارًا كبيرًا في حين قلَّت قيمة الدراهم[٢].

ومن الثابت تاريخيًّا أن العملة الإسلامية من أهم مصادر دراسة التاريخ الإسلامي، فهي تلقي الضوء على الحوادث السياسية والتطورات الدينية والاقتصادية، كما وضحت العملات التي ضربها السلاجقة في مرو مدى النفوذ والسلطان الذي تمتعوا بها بدليل الألقاب التي نقشوها على عملاتهم، كما وضحت فترات النزاع والضعف التي وصلت إليه دولة السلاجقة أواخر أيامها، وأكدت أيضًا مكانة المدينة التجارية فكان لانتشار عملتها خارج حدودها أكبر دليل على نفوذها التجاري.

ولم يقتصر استخدام التجار على العملات النقدية فقط بل استخدموا أساليب مصرفية أخرى كالسفاتج والصكوك، والسفاتج[٣] عبارة عن رقاع يكتبها الجهابذة أو الصرافون بقيمة المبالغ التي تؤخذ منهم، وتكون قابلة للصرف في أي بلد من عملاتهم[٤]، وكان للسفتجة ميعاد عند صرف قيمتها كاملة، وكان الميعاد يحل بعد أربعين يومًا من تحريرها، وكان من حق صاحب السفتجة أن يصرف قيمتها دفعة واحدة أو على أقساط[٥]، ويمكنه أيضًا صرف

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية ١٥٥، ابن خلدون: المقدمة ٢٦١.

(٢) محمد الباقر الحسيني: نقود السلاجقة ٣٥- ٣٦.

(٣) د/ محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ١٦٣.

(٤) آدم متز: الحضارة الإسلامية ٢/ ٢٧٨.

(٥) فيصل السامر: نهضة التجارة في العصور الإسلامية ٧٥، مجلة المؤرخ العربي العدد ١٧، ١٩٨١م.

obeikandl.com

قيمتها قبل حلول موعدها بخصم يصل إلى ١/ ١٠ من قيمتها.

وقد شاع استخدام السفاتج في مرو خلال العصر السلجوقي، وكانت إحدى وسائل المعاملات المالية التي استخدمت وقتذاك، ولا شك أن المعاملات الضخمة تستدعي وسائل مأمونة من الضياع خفيفة الحمل بعيدة عن متناول اللصوص[١]، وأمكن لتجار مرو عن طريق السفاتج[٢] تسوية حساباتهم مع غيرهم من التجار[٣] في الولايات الإسلامية وغيرها، مثلها في ذلك مثل بلدان الدولة الإسلامية في ذلك الوقت[٤]، ومن ثم فقد استطاع تجار مرو نقل نقودهم من مكان إلى آخر بعيدًا عن خطر اللصوص، كما استعملوا السفاتج في مبيعاتهم ومعاملاتهم الخاصة في الداخل والخارج.

كما استخدم التجار الصكوك وهي وسيلة من وسائل دفع[٥] المال وهي أشبه ما تكون بالشيكات في الوقت الحالي يثبت فيه قيمة القرض وموعد صرفه، وكان الجهابذة يقومون بصرف هذه الصكوك لأصحاب الأموال المودعة لديهم نظير مبلغ معين من المال، وكان يشهد عليه اثنان ثم يختم، وأحيانًا كان يوقع عليه ضامن يتعهد بدفع قيمة الصك في حالة عجز المدين عن دفع قيمة الصك[٦]، وتعد الصكوك أرقى ما وصلت إليه المعاملات المالية

---

(١) التنوخي: نشوار المحاضرة ٨/ ٢٢٢.

(٢) Innamuddin Byat,Vol1, p.20

(٣) عبد العزيز الدوري: النظم الإسلامية ١٧٤، القاهرة ١٩٥٠م، د/ محمد جمال الدين سرور: المرجع السابق ذكره ١٦٣.

(٤) عبد العزيز الدوري: النظم الإسلامية ١٧٤، بغداد ١٩٥٠م.

(٥) محمد جمال الدين سرور: الحضارة الإسلامية في الشرق ١٦٣، د/ عصام عبد الرءوف الفقي: الحواضر الإسلامية ١٥١- ١٥٢.

(٦) د/ عبد العزيز الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري ١٤٥، بغداد ١٩٤٨م.

openkanar.com

والتجارية في مدينة مرو في آنذاك.

وقد أدى التوسع في استعمال السفاتج والصكوك إلى قيام الصيارفة والجهابذة بدور كبير في الحركة التجارية؛ حيث كان الصراف في السوق يقوم بالكثير من أعمال البنوك، إذ يقوم بتغيير العملة، حيث جرت العادة أن التاجر إذا دخل السوق أودع ما معه من المال لدى أحد الصرافين وأخذ بدله رقاعًا، وبهذه الرقاع يشتري ما يريد ويعطي البائع منها ما يساوي قيمتها المادية[١]، كما قام الأهالي بمحاكاة التجار تفاديًا لخطر اللصوص، وفي النهاية يقوم التاجر بمحاسبة الصراف ويأخذ المتبقي له، أو يدفع الزائد عليه[٢].

أما الجهابذة[٣] فكانوا أوسع ثروة وأعلى مكانة من الصرافين حيث كانوا يقومون بمهمة الوكلاء الماليين لكبار التجار والحكام، ويعتبر الجهبذ مؤسسة مالية واسعة النطاق، وكان يساعده مجموعة من الكتبة والمحاسبين، وكان المحتسب يقوم بالإشراف على كافة الأعمال المصرفية التي يقوم بها الجهابذة والصرافون[٤].

وفي النهاية شهدت مدينة مرو انتعاشًا اقتصاديًّا في الزراعة والصناعة والتجارة، فنهضت الزراعة وتنوعت محصولاتها بفضل رعاية السلاجقة، كما تقدمت الصناعة فقد أصبحت مدينة مرو قلعة هامة من قلاع الصناعة، وأخذت منتجاتها تجوب البلاد، كذلك شهدت التجارة حركة واسعة سواء التجارة الداخلية أو الخارجية، وفاقت بضائعها شهرة عالمية بين مدن العالم في ذلك الفترة.

---

(١) د/ حسين مؤنس: تاريخ الفكر الإسلامي ١٣٨.

(٢) فيصل السامر: نهضة التجارة في العصور الإسلامية ٧٥.

(٣) د/ حسين مؤنس: عالم الإسلام ٣٤١.

(٤) ابن خلدون: المقدمة ٢٥٥.

openkandil.com

المجاعات والأزمات الاقتصادية

تعرضت مدينة مرو أثناء العهد السلجوقي لعدة مجاعات وأزمات اقتصادية التي سببت خسائر بالغة في الإنتاج، فكانت الزراعة تتعرض أحيانًا لبعض الكوارث الطبيعية نذكر منها على سبيل المثال: ما وقع سنة ٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م عندما تعرضت المدينة لزلزال استمر عدة أيام؛ مما أدى إلى هلاك الكثير من أهل المدينة وهروب البعض الآخر إلى الصحراء للإقامة بها[١]، ونتج عن ذلك حدوث المجاعات، كذلك تسببت السيول والرياح الشديدة في تدمير محاصيل الحنطة والشعير في مدينة مرو وسائر مدن خراسان سنة ٤٦٤هـ/ ١٠٧١ م[٢]، كذلك شملت مدينة مرو أيضًا موجة من البرودة الشديدة سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م أدت إلى تدمير المحاصيل الزراعية فارتفعت الأسعار وتعذرت معها الأقوات ومات الكثير من أهل المدينة وانتشرت الأوبئة[٣].

وتعرضت التجارة في مرو أثناء العهد السلجوقي لبعض التهديدات الخطيرة، نذكر منها: تعرض القوافل التجارية لخطر الإسماعيلية الذين كانوا يهاجمون القوافل ويستولون على ما فيها[٤] فضلًا على قيامهم بقتل الكثير من أهل المدينة وسرقة الأسواق وإغلاق الطرق التجارية[٥].

أيضًا ألحقت الاضطرابات السياسية أضرارًا خطيرة بالحالة الاقتصادية في

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٣٧٧.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٦/ ١٣٩.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٢٤.

(٤) ميرخوند: روضة الصفا ٢٥٣.

(٥) ابن الوردي: تتمة المختصر ٢/ ٦.

المدينة، فقد كانت الحروب الطويلة التي نشبت بين سلاطين السلاجقة[١] تعتبر من أهم الأزمات، ففي عهد السلطان ملكشاه استولى تكش على مدينة مرو وأعلن العصيان على السلطان[٢]، وأطلق يد جنوده في المدينة فسلبوها ونهبوها عن آخرها، كذلك انتهز أرسلان أرغون بن ألب أرسلان الحرب بين ابني أخيه بركياروق ومحمود واستولى على مدينة مرو وخربها وقتل معظم أهلها[٣]، هكذا تجمعت كل من العوامل الطبيعية والبشرية السيئة في إلحاق أضرار خطيرة بالحالة الاقتصادية في مدينة مرو في العهد السلجوقي.

المستوى المعيشي

ارتبط الرخاء والرخص في الأسعار في كل العصور بالاستقرار السياسي، فكانت مدين مرو في عهد سلاطين السلاجقة الأقوياء تنعم بالرخاء وانحلال الأسعار[٤]؛ وذلك بفضل السياسية الحكيمة التي اتبعها هؤلاء السلاطين مع الأهالي بتخفيف الضرائب وأخذ الخراج على مرتين في السنة لعدم إرهاقهم[٥].

كما أصلح سلاطين السلاجقة ووزراؤهم ولاسيما الوزير نظام الملك حال التجار بأن رفعوا المكوس والضرائب على البضائع فهبطت الأسعار وعم الرخاء[٦]، وعاش الأهالي في مرو في أمن ورغد من العيش، وقد انتعشت

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء ٤٩٣.

(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء ٤٩٣.

(٣) الحسيني: زبدة التواريخ ١٣٣، النويري: نهاية الأرب ٢٦/ ٣٢٢.

(٤) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ٢٣٦- ٢٣٧، الحسيني: المصدر السابق ذكره، ١٧٥- ١٧٦.

(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٩/ ٥٦، نظام الملك: سياست نامه ٧.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٥٨٨.

obeikandl.com

الحالة الاقتصادية بتقدم الزراعة وتنوع المحاصيل[١]، فضلًا عن انتعاش الصناع وتقدمها فقد أخذت منتجاتها تجوب البلاد[٢]، كما نشطت التجارة الرئيسة[٣]، وتشجيع سلاطين السلاجقة برفع المكوس وتأمين الطرق التجارية[٤] مما أدى إلى تنوع منتجاتها ففاقت صادراتها وارداتها، ومن هنا عم الرخاء وارتفع مستوى المعيشة في المدينة.

صفوة القول: إن عهد السلاجقة الأقوياء هو عهد الرخاء والتقدم والرفاهية، أما فيما عدا ذلك فقد تعرضت المدينة في بعض الأحيان لبعض الأزمات الاقتصادية التي ترتب عليها موجات من الغلاء شملت المدينة وألحقت أضرارًا كبيرة بأهلها، وهكذا تفاوت مستوى المعيشة في مدينة مرو بين الارتفاع والانخفاض، ففي عهد سلاطين السلاجقة الأقوياء عاش أهل مرو في رخاء اقتصادي ورغد من العيش، بينما حدث العكس في أواخر الدولة السلجوقية والاضطرابات السياسية.

(١) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ٧٠.

(٢) الثعالبي: لطائف المعارف ٤٢٠، ثمار القلوب ٥٤٢، القلقشندي: صبح الأعشى ٤/ ٣٩٤، لسترانج: بلدان الخلافة الشرقية ٤٤٢، رينيه غروسيه: جنكيزخان ٣٠٨.

(٣) مرتضى راوندي: تاريخ اجتماعي إيران م١ ٤٢٤.

(٤) ابن الوردي: تتمة المختصر ٢/ ٢٤، النويري: نهاية الأرب ٢٦/ ٣٧٢، ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٧٨.

openkandil.com